الحلقة السابعة

وماذا عن غرناطة الحبيسة

دون أن نستعيد تاريخ الأندلس من خلال غرناطة الرابضة والمحصنة بقلاعها فهى عايشت أحداث الأندلس منذ بداية الفتح ، قرية هامشية من كور « البيرة » لتصبح فى فترة تالية ولاية ، لتتحول إلى مملكة ، وتواجه ما يتجاوز قرنين ونصف من الزمان ، دفع وتقلص ، مد وجزر ، عرفت ما عرفته بقية دويلات الطوائف ، عرفت المرابطين ثم الموحدين ، وقاومت الإصرار الصليبى بجهاد إسلامى عرف الانتصار كما عرف الانتكاس .

استجمعت غرناطة فى عصر الصمود ما تبقى من الأندلس (١٢٣٧ - ١٢٣٨ - ١٤٩٢) عبر مواكب الفتن والصراعات ، كان الصراع على السلطة بين ابن الأحمر ومنافسيه ابن هود وابن مردنيش وآخرين ، تمكن فى النهاية ابن الأحمر وهو محمد بن يوسف النصرى سليل بنى نصر من السلطة (٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م) . وقد كان بنونصر سادة لحصن أرجونة من أعمال ولاية جيان . ويرجع البعض نسب بنى نصر إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وهو من كبار الصحابة . ولقد عاون ابن الأحمر على بسط حكمه ، أصهاره بنو اشقيولة . كما أنه دعا لأحد الأمراء المسلمين الظاهريين وهو الأمير أبو زكريا الحفصى صاحب إفريقيا (تونس) متلقياً منه العون . كما قيل إنه دعى للخليفة المنتصر العباسى محتذياً بذلك حذو ابن هود من قبل . ومن المعروف أن مملكة غرناطة كانت تقع بين جبال نڤادا ، وقد سماها العرب بجبال الثلج من ساحل البحر المرية ، إلى جبل طارق . وعرفت غرناطة التقلص والتحجيم بعد سقوط بلنسية فى يد ملك أراغون ، وسقوط مدينة شاطبة فى يد الأرجونيين أيضاً ، واستيلاء القشتاليين على حصن أرغونة - أو أرجونة - ، وحصار النصارى لمدينة جيان ..

ومع هذا استمرت المواجهة مع النصارى لتتخللها هدن ومعاهدات وإعطاء جزية أو معاونة ضد أعداء . ومن المحزن أن يذكر لنا بعض المؤرخين أن ملك قشتالة دخل إشبيلية بمساعدة ابن الأحمر . ولقد صار بنو اشقيلولة فى مالقة ووادى آش بعد أن عقد ابن الأحمر ولاية العهد لولده . ولم يف لأصهاره بنى اشقيولة بوعوده . ولقد أبرم معاهدة مع المرينيين وأعطاهم منصب مشايخة الغزاة . وكم كان مؤسفاً أيضاً أن ابن الأحمر فى سبيل فك الحصار المضروب عليه فى مالقة ووادى آش من طرف أصهاره بنى اشقيلولة أن يستعين بالنصارى لفك الحصار عنه متخلياً لهم عن بعض المدن والقلاع والحصون . وهكذا نرى أن الذى أضاع الأندلس فى النهاية وأسقطها فى يد الصليبيين ، ليست قوة الخصم بقدر التمزق الذى كان يعانى منه الجسد الأندلسى من الداخل . وصدق المتنبى حين قال :

لا يبلغ الأعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

ويُذكر فى هذه الفترة هذا الأثر الذى ظل حتى يومنا شاهداً على التقدم العمرانى فى غرناطة ، ونعنى بذلك بناء قصر الحمراء على أنقاض قلعة بنى زيرى وما حولها .

مملكة غرناطة فى عصر ابن الأحمر ، والتى كما أشرنا صمدت ما ينيف على قرنين ونصف من الزمان . وكان صمودها ملفتاً للنظر كما أشار إلى ذلك المستشرق الأسبانى الشهير « دياس كاخيجاس » فى مؤلفه المنشور بمدريد عام ١٩٤٨ وأورده محمد عبد الله عنان فى نهاية الأندلس العصر الرابع (ص .٤ - ٤١) : « إن قيام مملكة غرناطة فى ظل بنى نصر يبدو لغزاً حقيقياً ، وذلك أنها ولدت فى ظروف غير ملائمة ، بل ضعيفة ذابلة ... » مبدياً دهشته من أن مملكة غرناطة بالرغم من تكوينها من هضاب وبسائط يغلب عليها القفر أكثر مما يغلب عليها الخصب ، وامتداد رقعتها ما بين جيان شمالاً إلى الجزيرة جنوباً ، وبالرغم من أن الجند النصارى كانوا فى أحيان كثيرة يخترقونها حتى مرج غرناطة ، فإن

هذه العوامل كلها ، إضافة إلى الظروف الجغرافية والاقتصادية السيئة لم توقف تقدمها وازدهارها وبقائها مدى قرنين ونصف رغم أطماع النصارى ، حتى إن كل ذلك لغريب ، إنه لينبو عن الإيضاح » .

عبرت مملكة غرناطة إذن التاريخ مرة محكومة بقيادات متفتحة متطلعة إلى الجهاد والإقلاع ، وأخرى بقيادات انطوائية قانعة بسقط المتاع ، تاركة للفتن والأهواء الساحة لتسيطر على الأحداث .

وهكذا عرفت غرناطة عهوداً وعهوداً من محمد الثانى المكنى بالفقيه (٦٧٢ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٢ م) ، ولقد سار على نهج أبيه فى مصانعة الأقوياء ومداراة الأعداء . متصلاً بالقشتاليين طالباً منهم العون ومساندته وعدم مساندة بنى اشقيلولة ، متنازلاً لهم كما تنازل أب له من قبل ، عن عدد من الحصون وكأنها ملك له وضياع وليست بحصون المسلمين وأرض الإسلام . وكان طبيعياً أن يستولى القشتاليون على مدينة طريف ولا يلتزمون بعهودهم له ، ومع هذا يذكر له نظم الجيش والدواوين والاهتمام بالعلم والعلماء والأدباء .

ومن بعده عهد محمد الثالث المخلوع (٧٠١ - ٧٠٨ هـ /١٣٠٢ - ١٣٠٩ م) وهو ابن محمد الثانى السالف الذكر ، ولقد شهدت هذه الفترة تداخلات ومضاربات كل يغنى على ليلاه ، ففى الوقت الذى عقدت معاهدة مع القشتاليين ، لم تُرْضِ المرينيين فى المغرب ، فقاموا بتحريض ملك أرجون ضد ملك غرناطة ، ولقد عجلت الفتن والحروب على عصره ليتولى ابن اخيه الحكم بعده ، وهو نصر ابن محمد المكنى بأبى الجيوش ، واستمرت فى عصره أيضاً الاضطرابات . بل عرفت هذه الفترة أيضاً التحالف بين مملكة قشتالة وأرجون ضد غرناطة وعودة الاتفاق مع بنى مرين ليأتى عهد إسماعيل الأول ، خامس ملوك بنى الأحمر ليجتهد فى الدفاع عن مملكته ويحقق بعض الانتصارات على القشتاليين ، ومع هذا قُتلَ من طرف ابن عمه صاحب الجزيرة بسبب جارية ليتولى العهد من بعده ابنه أبو عبد الله محمد ، وليستمر تحرش القشتاليين بالمسلمين رغم قدوم الإمدادات من المغرب ، وكانت موقعة سلادو وهزيمة المسلمين وسقوط العديد من

الحصون فى يد النصارى رغم محاولة سلاطين المغرب إنقاذ ما يمكن انقاذه بعد سقوط طريف والجزيرة الخضراء ، وقُتلَ يوسف الأول الذى تولى العهد فى غرناطة ليأتى عهد « محمد الغنى بالله » ، ليتولى السلطة فى هذه المملكة التى بلغ سكانها ما يقرب من نصف مليون . غرناطة عروس الحواضر الأندلسية التى كانت كما أشرنا فى مطلعها مجرد ضاحية من ضواحى مدينة البيرة حين الفتح الإسلامى . لتصبح وبخاصة فى هذه الفترة ، فترة ولاية محد الغنى بالله الذى استوزر لسان الدين بن الخطيب ، وتواجه مع الفتن محاولاً احتوائها ، وكذا الثورات المتكررة فى غرناطة ، مستبعَداً عنها ليعود إلى عرشه فيها مناوراً مع ممالك النصارى - قشتالة وأراجون - بين مهادنة وهدنة ، وحروب وسلام ، ومواثيق وخرق للمواثيق ، وغزو لأراضى النصارى من المسلمين ، والعكس ، لم تسترح غرناطة وتستعيد أنفاسها من فتنة إلى أخرى ، ومن معركة تجر وراءها المعارك . إنها غرناطة المتميزة بصمودها كما هى متميزة بجروحها ، إنها ترمز إلى تاريخ أمة الإسلام ، صامدة رغم الاستنزاف والجروح مع الفارق فى النهاية ، انتهت غرناطة واستمرت أمة الإسلام صامدة تتواجه فى كل الجبهات ، غرناطة التى استطاع أن يجعل منها زاوى بن زيرى البربرى عاصمة لولايته قبل أن تتحول إلى مملكة متسعة مشرقة متحدية متواجهة ، مر عليها المرابطون ومَن بعدهم الموحدون لتعرف فى ولاية هذا الغنى بالله - القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ / ١٣٥٥ - ١٣٩١م) - قدرات ابن الخطيب ومحاولته احتواء الأحداث ، ومع عبقرية ابن خلدون وسفاراته الناجحة باسمها لدى « بدرو » ملك قشتالة سنة ١٣٦٣ م ، ولم تتوقف السفارات عند حد غرناطة والمغرب ، بل شملت حتى الاتصال بمصر فى المشرق ، والتى كانت تعانى بدورها من غزوات النصارى ، ولم يقف الغنى بالله عند حد الجانب السياسى ، بل اهتم بالجوانب الاقتصادية والحياة العلمية والأدبية . ويُذكر لعهده حضور العقليتين المتميزتين ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب . هذا الذى دُبِرت له فى النهاية مكيدة انتهت بقتله فى فاس .

عرفت غرناطة بعد الغنى بالله الفقر فى ملوكها وضعفهم وتآمرهم فيما بينهم ، ولجوئهم إلى النصارى كل على حساب الآخر ، أسماء يرويها لنا التاريخ من حكام غرناطة . لن نقف عندها طويلاً ، توالت على الحكم بعد (٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م) فى جو من الصراعات والأخذ والرد مع مغرب المرينيين من ناحية ، ومع النزعة الصليبية الممثلة فى القشتاليين والأرجوانيين من ناحية أخرى ، المتحفزة لتصيد الفرص لتزحف نحو غرناطة مستولية على أطرافها طرفاً بعد الآخر ، لتزحف إلى أحشائها فى النهاية . وإن كنا نسجل حدثاً هاماً فى نفس الفترة ، وهو سقوط القسطنطينية فى يد العثمانين ، وما كان له من ردود فعل وأصداء بالنسبة للمواجهة فى الأندلس ، حيث روع هذا الحدث أوروبا النصرانية وزكى فيها النزعة الصليبية ، وكان على غرناطة أن تتحمل ثقل هذه الأصداء باعتبارها رمزاً لما تبقى من الإسلام فى الأندلس .

ولقد لعبت الأحداث فى بعض الأحيان لصالح هذه القلعة الحبيسة سواء فى شكل فتن بين ملوك النصارى قشتاليين وأراجوانيين ونقاريين ، أو فى شكل إمدادات تأتى من مغرب المرينيين أساساً ، وما حولهما ، أو فى شكل قادة واعين بخطورة المواجهة ، مستعيدين للأنفاس فى عصر الاختناق ، ولكن هاهى الأحداث وفى هذه المرة لا تلعب لحساب غرناطة وإنما على حسابها ، فتضيف إلى رد فعل سقوط القسطنطينية والثأر النصرانى وتحفزه للقصاص سقوط جبل طارق ، وقطع إمدادات المغرب ، واتفاق القشتاليين والأراجونيين بالمصاهرة فى الوقت الذى عم الشقاق والطلاق فى الأسرة الإسلامية ، تآلب الشقيق على الشقيق ، وتقاتل أبناء الأب الواحد .

وهنا نحس بما تبقى من أنفاس لغرناطة الشهيدة المحتضرة فى عهد أبى الحسن ، لقد حاول أن يحارب ولكنه انساق فى موكب التراجع والانهيار متزوجاً بالنصرانية (هذا الزواج المختلط الذى أسهم فى انحلال المجتمع الأندلسى) ، ليعم الخلاف فى داخل أسرته بين مَن يخلفه فى ولاية العهد .

سجن أبو الحسن ابنه أبا عبد الله الفتى من زوجته المسلمة ، حاول بنو السراج أقوى أسر غرناطة ، وكأن لهم شأن فى هذه الفترة أن يتدخلوا بين الأب وابنه ، وتمكن من الفرار فى الوقت الذى نرى النصارى يسيرون إلى مالقة ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة فى الموقعة المعروفة بـ « الشرقية » على يد الأمير أبو عبد الله الزغل ، وخرج أبو عبد الله محمد الفتى يحذو حذو عمه الباسل الزغل للغزو أيضاً ، ولكنه هُزِمَ عند الحصن « اللسانة Lucena » فأسر ، واقتيد إلى قرطبة ، فعمت الاضطرابات غرناطة التى كان قد تولاها أبو عبد الله الفتى مستغلاً ضعف والده ، ولكن بعد أسره اجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبى الحسن ليجلس على العرش مرة ثانية ، ولكنه تنازل عنه لإعيائه وفقد بصره ، لأخيه أبى عبد الله الزغل الذى كان يحكم على مالقة ، وتم افتداء الأمير الأسير ، ووقعت معاهدات طابعها سرى بين ملك قشتالة ، وفى سبيل ذلك زحف النصارى على رنده واستولوا عليها ، وشبّت الحروب والفتن فى غرناطة بعد عودة الأمير الأسير بسبب الصراع بينه وبين عمه « الزغل » ثم ترك الابن غرناطة ذاهباً إلى المنطقة الشرقية للدفاع عنها ، ومع هذا توالى سقوط الحصون فى يد النصارى فى الوقت الذى عادت فيه المواجهات بين الأمير وعمه « الزغل » مستعملين الأنفاط ، وكأن الأسلحة التقليدية لا تكفى ، فمد فرناندو النصرانى يده لأبى عبد الله الفتى ضد عمه وسقطت مالقة فى يد النصارى ، وارتد الزغل إلى وادى آش ، وانقسمت مملكة غرناطة مع ارتقاء أبى عبد الله محمد على عرشها فى غيبة عمه الزغل رغم محبة أهل غرناطة لهذا الأخير ، وربما أيدوا الابن على عمه اتقاءً للعدو النصرانى الذى كان يميل إلى الابن ، لا العم ، وتم هذا فى مملكة ممزقة ، خطط ملك قشتالة للقضاء عليها رغم الاستغاثة بملوك الإسلام وبسالة الدفاع عنها ، وشدة الحصار ، ونكث فرناندو بوعوده واستغاث ما تبقى فى هذه الأرض الباسلة بالمقاومين من رجالها بمصر ، فى الوقت الذى كان الشرق بدوره يعانى من نفس الصراعات ، وكان على المشاكل التى تحل وتصفى فى ميدان القتال أن تزحف على الأوراق ليفرض المنتصر ما يريد فرضه تأكيداً للاستسلام .

زحف فرناندو على مدينة « بسطة » رغم بسالة المسلمين فى الدفاع عنها ، واستسلمت فى النهاية كما استسلمت « المرية » ، وتدارك اليأس الزغل فركع لفرناندو ودخل النصارى لوادى آش ، وتنازل الزغل عن حقوقه مفضلاً الاسترخاء فى المغرب .

وكان الصراع الأخير حول غرناطة المحتضرة وهى فى سكرات الموت تأبى أن تلفظ أنفاسها على يد عدوها ، فكانت المعارك بين المسلمين والنصارى ، ومراوغة « فرناندو » وخداعه ، فى الوقت الذى يتأهب لافتتاح غرناطة بالزحف عليها ، محاصراً لها ، أمامها منشئاً مدينة « شنتفى » ، واستبسل ما تبقى من جسد غرناطة ممثلاً فى « موسى بن أبى غسان » ، فارسها الذى آثار حماسة المؤمنين وقاد الفرسان ، واشتد الحصار وانقطعت الإمدادات رغم تصميم الفارس موسى بن أبى غسان على الدفاع ، وأكمل فرناندو زحفه على المدينة وحبست غرناطة وهى فى سكرات موتها خروج أنفاسها فى سرير الاحتضار وأبت إخراجها إلا فى ساحة الاقتتال ، ولكن كيف فى مواجهة غير متعادلة ؟ بدأت رياح الموت تهب رغم اعتراض موسى على هبوب هذه الرياح ، رياح التسليم والاستسلام ، ولكن بدأ التحضير لمراسيم الموت ممثلة فى شروط التسليم وضماناته ، وكيف تحترم الضمانات بين المنتصر والمنهزم ، وعجل بالدفن ، وحملت مملكة غرناطة الحبيسة إلى قبرها بعد أن دخل القشتاليون إلى الدار رافعين الصليب فوق الحمراء ، وبدأت مواكب المتباكين والبكّائين من داخل وخارج الدار .

وهذا ما سوف نطرحه فى الصفحات التالية والتى سوف نفردها لاستخلاص العِبَر بعد أن عبرنا الأندلس فى عرض مركّز ، خلال فصول سبع فى حلقات سبع ، المحور الأول من هذا المؤلف ، على أن نتناول فى المحور الثانى وهو فى أربع حلقات : بؤر الضياع وقلاع المجد .

* * *